الشّعر القصصي عند أدونيس – قصيدة "مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف" أنموذجا-

Adonis' narrative poetry: - the poem of "An Introduction to the History of mulūk al-ṭawāʾif" as a model –

مريم بن عياش*

تاريخ الإرسال: 2021/01/15	تاريخ القبول: 2021/09/29	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تبيان أهميّة التّداخل الأجناسي في قيام الشعر العربي الحداثي المتجاوز للمألوف -أي باعتباره قطعة غنائيّة تقوم على الأوزان والقوافي- إلى اللامألوف بتوسيع حدوده الأدبيّة، لنشهد أشعارا دراميّة، قصصيّة، مسرحيّة ... قائمة على فعل الحكي والقصّ مزاحمة السّرد في مهمته الأولى.

وقد اخترنا قصيدة أدونيس "مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف" التي تسرد فترة زمنية من تاريخ الأندلس، وتبعا لما تقدّم يمكن أن نتساءل عن مفهوم الشّعر القصصي، وعن محتوى قصيدة "مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف"، وعن تجليات السّرد فيها.

الكلمات المفتاحية: الشعر القصصي، أدونيس، ملوك الطوائف، حيفا، الشعر الحديث.

Abstract:

This paper aims to demonstrate the importance of overlap of genres in modern Arabic poetry that goes beyond the ordinary to the unfamiliar by expanding its literary boundaries, to witness dramatic, narrative, theatrical poetry ... based on the act of narration and storytelling crowding out the narration in His first assignment. We have chosen Adonis' poem "An Introduction to the History of mulūk al-ṭawāʾif", According to the above we can ask about the concept of narrative poetry, about the content of the poem

* مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده، جامعة الشّهيد حمّه لخضر الوادي، الجزائر
benayache-meriem@univ-eloued.dz

"An Introduction to the History of the Kings of Taifa", and about the manifestations of the narration.

***Key words**: Narrative poetry, Adonis, Mulūk al-ṭawāʾif, Haifa, Modern poetry.*

المؤلف المرسل: مريم بن عياش benayache-meriem@univ-eloued.dz

*** *** ***

. مقدمة:

تأتي **أهميّة البحث**، وضرورته في كونه بحثا عن الطفرة في الشّعر الحداثي –أي بحثا في التداخل الأجناسي- ما جعل الباحثين يلجون عالم الشّعر من أجل صبغه صبغة جديدة مغايرة؛ لأنّ الشّعر القصصي يقوم على خصائص القصة، فتتماهى مع خصائص الشعر، ممّا يشكل لدينا قيما شعرية وجمالية مضافة إلى النّص الشّعري الأوّل -الأصيل- فيمكن القول بأنّ الشّعر يتعالى في تكوينه الإبداعي عن بقية الفنون الإبداعيّة، من خلال تفرده بقوانينه الخاصة –الوزن والقافيّة- وهو ما يجعله طاقة حيويّة مؤثرة في العالم، لكنّ هذا التّفرد والتّميّز لم يدم طويلا خاصة مع تطور الأجناس الأدبية، واختلاطها –بعد نظرية داروين"نظريّة التّطور"- الأمر الذي ساهم في تغير الشّكل الشّعري تدريجيا، حتى أصبح متداخلا مع عدة أجناس أدبيّة أخرى، كالرّواية، والقصة، والمسرحيّة،...

وسنشهد في قصيدة **"مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف"** للشّاعر الحداثي المتمرد **"أدونيس"** هذا الاختلاط الأجناسي فقد تداخل التّشكيل الشّعري مع التّشكيل النّثري -وبالتّحديد القصة- ولن نتطرّق في هذا المقام إلى جينيالوجيا الشّعر الحديث، وإنمّا سنكتفي بقراءة القصيدة، واستخراج التّشكيل السّردي المتواجد فيها (الشّخصيات-الزّمان-المكان).

حيث تُمثّل القصيدة رحلة للبحث عن الذّات -الذّات الفلسطينيّة- بين ركام الخيانة العربيّة، والاستبداد الصهيوني الإسرائيلي، من خلال تجسيد الشّاعر للصّدام الحاصل بين الأنا الفلسطيني، والآخر الإسرائيلي في قالب تاريخي-إسلامي فقد استشهد بالنّص الإسلامي

والمتمثل في اغتيال الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه للدّلالة على الحقد اليهودي المتجذر في عمق التّاريخ، واستعان كذلك بالنّص التّاريخي عند سقوط الأندلس في عصر ملوك الطّوائف للإيحاء على تفكك الدّول العربية، وشتاتهم.

ولمعالجة هذا البحث، والإحاطة به وقراءته قراءة علميّة متفحصة ودقيقة، استعنّا **بالمنهج الوصفي** عبر توظيف مختلف أدواته وإجراءاته المنهجيّة، من أجل تفكيك هذا الموضوع والنّظر فيه، إضافة إلى **المنهج التّاريخي**، وذلك بالرّجوع إلى وقائع وأحداث ماضيّة.

تبعا لما تقدّم قوله، يمكن طرح إشكاليّة رئيسة لهذا البحث، تتبعها تساؤلات فرعيّة، جاءت كالآتي:

الإشكالية الرّئيسيّة: ما هي تجليات السّرد القصصي في قصيدة "مقدّمة لتاريخ ملوك الطّوائف"؟ ويتفرع عن هذا تساؤلان هما: ما مفهوم الشّعر القصصي؟ ما هو محتوى قصيدة "مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف"؟

وتتجلّى **أهداف** هذه الدّراسة في:

- تسليط الضّوء على شخصيّة عربيّة متميّزة، ومساهِمة في نشر الأفكار الحداثيّة متأثرا في ذلك بشخصيات أوروبيّة.
- التّعريف بالشّعر القصصي، وتبيان جمالياته في الأثر الشّعري.
- تفكيك النّص الشّعري، واستنطاق مكنون القصيدة، لما لها من دلالات كثيرة فهي نص مفتوح قابل للقراءة بشتّى المناهج والآليات.
- إيضاح الرّؤية الأدونيسيّة من القضيّة الفلسطينيّة، والتّطرق من خلالها إلى قضايا كثيرة تخصّ المجتمع العربي.

2. مفهوم الشّعر القصصي:

عرف الشّعر القصصي عند العرب توهجا في عصرنا الحديث -وهذا لا يُلغي وجوده في الشّعر العربي القديم بالرّغم من قلّته- مما دفع الشّعراء لتبنيه، محاولين التّغيير والتّجديد في شكل القصيدة العربيّة –القصيدة الغنائية- فقد «انتفض شعراء على

القوالب القديمة يُحاولون أن يغيّروا من أحجامها وهيئاتها، وما عاد الشّعر الغنائي بأسلوبه المتوارث، يقوى وحده على احتواء تجربة الإنسان المعاصر، فقد زاحمته مرحلتا السّرد والتّجسيد»[1]، ومن ثمة شقّ السرد طريقه إلى القصائد العربيّة بعد محاكاة كثيرة للنّماذج الأولى –محاكاة المعلّقات- وعرفت القصيدة العربيّة انفتاحا واسعا على النّثر، والتّناص مع خصائصه، وكانت القصة من بين الأشكال النّثرية المتطفلة على الشعر العربي، فـ «إذا اقتربنا إلى الشّعر الحديث..وجدنا القصة قد أخذت فيها سمات..(...) وإن كانت القصة حتى ذلك الحين قد ظلّت غريبة على الأدب العربي، يتلمسها فيما كتب الغرب..ولا ينشئها المنشئون في الأدب العربي، ولكن الرّياح الغربيّة كانت قد داعبت الذّوق العربي»[2] فقد عرف الغرب تنوعا في الشّعر، واختلافا في مضامينه وأشكاله، ما جعل الشّعر العربي هو الآخر ينهل من النثر لصبغ الشّعر العربي بموجة الجدة، والحداثة.

3. قراءة في قصيدة "مقدّمة لتاريخ ملوك الطّوائف":

يندهش القارئ عند قراءة قصائد أدونيس المملوءة بالتّمرد على الشّعر الكلاسيكي القديم، والعزوف عن كل القواعد السّابقة، ويدرك المكامن الجوهريّة في شعره النّثري، فقد خاض في هذا المجال بقوة منافسا لأهمّ الشّعراء الحداثيين العرب كانوا أم غربا، وقد تميّز أسلوبه الشّعري بالغموض والغرابة، إضافة إلى استعماله للأساطير بشكل ملفت للنظر، ونحته من التّاريخ العربي في أحايين كثيرة، فتتشابك المعاني وتتسع التّأويلات لفهم النّص الشّعري الأدونيسي، ممّا يجعله متفردا ومتميّزا عن بقيّة الشّعراء العرب.

تعتبر القصيدة الأدونيسية –الماثلة أمامنا- استشرافا لواقعنا اليوم المتوج بعنوان بارز وخطير "بداية تطبيع الدّول العربيّة"، فقد اختار عنوان "مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف" ليعبّر عن الشتات العربي وتفرّق الوحدة العربيّة، ونسيان القضيّة الفلسطينيّة باستعمال رمز الأندلس **"الفردوس المفقود"**، التي تتقاطع مع محتوى هذه القطعة الشّعريّة، والمتحدثة عن "**ضياع يافا-عروس الشّرق**".

تنبني القصيدة في شكل فوضوي مفتوح، فقد جاءت الجمل متنافرة تارة، ومتواشجة متداخلة تارة أخرى، تشبه الحلم السّرمدي، فهذه القطعة الشّعريّة بمثابة دفقة شعورية مبعثرة متمردة على السياق المنطقي للشكل الأوّل حيث يستهل أدونيس

قصيدته بالتّحسر على ضياع يافا عروس فلسطين من طرف المغتصب الإسرائيلي في سياق غامض، في قوله:

وَجهُ يافا طفلُ هل الشّجرُ الذّابِلُ يزهو؟ هل تَدخل

الأرضُ في صورة عذراء؟ من هناك يرجّ الشّرق؟

جاء العَصفُ الجميلُ ولم يأْتِ الخَرَابُ الجَميلُ صوت

شَريدُ...[3]

أوّل ما نلحظه على أسطر المقاطع الأولى غياب الرّابط المنطقي بين الأفكار الواردة في السّطر نفسه، هذا التّنافر بين الدّلالات هو تنافر مقصود من الشّاعر ليبرز حجم المأساة المتحدث عنها، وليحقق في نفس الوقت الجمالية والشاعريّة المرجوّة، فقد شبّه يافا بالطّفل، الذي يحتاج إلى الرّعاية والدّعم، كما يحتاج إلى الحماية، وشبّهها بالشّجر الذّابل -ومعروف عن يافا بأنّها أمّ البرتقال- فكيف ليافا أن تذبل؟ وهنا إيحاء على كميّة الضغط الموجه إلى عروس فلسطين من طرف المحتل الإسرائيلي، لتبقى في حصار وعزلة عن الخارج، تقاوم نفسها إلى حين فتسمع نغمات أنينها "صوت شريد"، صوت فلسطين الذي أضحى بدون صدى.

ويستشهد عن الخيانة العربية، التي أضحت تنخر الجسد الفلسطيني اليوم، مدعمة للكيان الصّهيوني الغادر، بالحديث عن الخليفة –علي بن أبي طالب رضي الله عنه- في قوله:

(كَانَ رأسُ يهذي يُهرّجُ محمولاً يُنادي أنا الخليفةُ)

هاموا حفروا حفرةً لوجهِ عليٍّ كان طفلا وكان أبيض

أو أسود، يافا أشجارُهُ وأغانيه ويافا.

تكدَّسوا، مزَّقوا وجهَ عليٍّ

دمُ الذّبيحَةِ في الأقداحِ، قالوا: جبّانةُ[4]

فهي حكاية عن الخيانة العربيّة الصّهيونيّة في حضن بيئة عربيّة، تمّت كتابتها بدم الفلسطينيين، وبدم أهل يافا، باستحضار أدونيس لوقائع التّاريخ الإسلامي، يوم اغتيال الخليفة **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه، فقد خانته الأيادي الدموية اليهوديّة، للوصول إلى مطامعهم البشريّة الفانيّة، وهو ما حدث في يافا قبل خمسين سنة، وما يحدث اليوم في فلسطين الدّولة العربيّة، وبتآمر من بعض الدّول العربيّة.

هذا الاستطراد في رواية الوقائع الماضيّة، كان لأسباب أدونيسيّة متعددة، كان أهمّها تبيان الحقد والطّمع اليهودي المتجذر فيهم، ومحاولتهم منذ سنين بعيدة إزاحة الدّولة الإسلاميّة، والعربيّة.

ويستشهد كذلك بـ **"أبو الحزم ابن جهور"** أمير الدّولة الأمويّة، ومعلن سقوط الأندلس، للدّلالة عن الرّتابة الزّمنية، على بداية الحكاية ونهايتها، عن القيام والسّقوط، وعن الحياة والموت في شكل دائري، فيقول في ذلك:

وابن جَهْورَ ميْتُ

لم يكن في البدايهْ

غير جذْرٍ من الدمع أعني بلادي

والمدى خيطي-انقطعتُ وفي الخُضرَةِ العربيّهْ

غرِقت شمسيَ الحضارة نقّالةُ، والمدينهْ

وردةُ وثنيّة- خيمة:

هكذا تبدأ الحكاية أو تنتهي الحكايهْ[5]

هكذا أصبحت الجملة الشّعرية متحررة داخل البناء الدّاخلي للقصيدة، فهي جملة متحررة عن الدّلالات التي قبلها وبعدها، فالشّاعر يتخفّى تحت أثواب تاريخيّة عديدة، ويذهب إلى التّعقيد والهروب من المعني الصّريح المباشر، فيجعل الحواس متلهفة لاستنطاق النّص وتحريره من التّعقيدات المحيطة بجميع جوانبه.

ويواصل أدونيس طيلة أسطر القصيدة في ذكر الإيماءات الدّالة على الصّراع الدّاخلي والخارجي بين العرب واليهود، والحقد اليهودي المتجذر في أعماق التّاريخ، للوصول إلى الحلم والمبتغى المراد، وقد سعوا إلى ذلك منذ الخلفاء الرّاشدين، واغتيالهم لهم(اغتيال كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم) إلى يومنا هذا، في محاولتهم لسلب العرب الأرض المباركة- الأراضي الفلسطينيّة العربيّة- وفي ذلك يُشير إلى المدينة وهي رمز الأصل والأصالة، في قوله:

(حينما كانت المدينة مقطورةً والنّواحْ

سورها البابليُّ)، كتبتُ المدينهْ

مثلما تتضحُ الأبجديّهْ

لا لِكَيْ ألأم الجراحْ

لا لِكَيْ أبعث المومياءْ

بل لكي أَبْعثَ الفروقَ..... الدِّماءْ

تجمعُ الوَرْدَ والغراب لكي أقطع الجسورْ

ولكي أغسل الوجوه الحزينة.[6]

يستعين الشّاعر لإيصال رسالته المملوءة بالحسرة والأمل في نفس الوقت، بمعجم لا بأس به من الألفاظ الدّالة على الحزن والاستياء من وضع حيفا، والتّنبؤ بمستقبل أفضل لفلسطين، وأهمها: الدّماء- المومياء- الجراح- الغراب (إسرائيل)- النواح- الوجوه الحزينة.

هذا التّشكيل المصطلحاتي أدّى إلى رسم الرؤية الأدونيسيّة لمسار القضيّة الفلسطينيّة، ومن الضّروري -هنا- الإشارة إلى قدرته على رصد القضيّة في مختلف تمظهراتها بشكل جديد ومغاير، فقد عمل على تفكيكها لإعادة خلقها في إطار توعوي حديث.

كما يُحاول أن يستقري واقعا غامضا، بآليات حديثة تستدعي المخيلة للقبض على أدق التّفاصيل الغائبة عن البنية السّطحيّة، بالدّخول إلى تفاصيل التّفاصيل الجزئيّة، وتشريحها للهروب من واقع متعدد الأوجه، داخل قصيدة شريدة.

ويرجع إلى لوم **"أبو الحزم ابن جهور"** عن ضياع الأندلس، وسقوطها بعد تفرقها إلى مقاطعات وطوائف، ممّا سهل احتلالها، فيقول:

كشَفت رأسها البَاءُ، والجيمُ خصلةُ شَعْرٍ، إِنْقرضْ إنْقرضْ

أَلِفُ أولُ الحروف إنقرض إنْقرضْ

أسمعُ الهاءَ تنشجُ، والرّاء مثل الهلالْ

غارقاً ذائباً في الرمالْ

إنْقرضْ إنقرضْ

(...)

سحر تاريخكَ انتهى،[7]

تُشير وتدُلّ الحروف التّالية: الباء، الجيم، ألف، الهاء، الرّاء عن شخصية ابن جهور، الشّخصية القرطبيّة، والمعْلنة عن انهيار صرح الأندلس، فيخاطبه أدونيس بقوله إنقرض، بإعلانه لنهاية سحر الفردوس المفقود.

ومن ثمة فإنّ المتصفح للقصيدة سيرى محاولة أدونيس لتوفير جهده الفني، في محاولته لبتر مقاطع الجمل والكلمات، وحتّى الحروف، ليخلق عالما خاصا به، واستقطاب القراء إلى التّمعن في تفاصيل الكلمات قبل الجمل لفهم النّص الشّعري قاطبة.

يتساءل في قصيدته، أليس الإنسان من يصنع تاريخه؟ أليس العربي هو من يكتب مهزلة التّاريخ؟ ويجسد خيباته المتصاعدة، والمتتالية من سقوط الأندلس، إلى سقوط يافا، إلى حصار غزة. يقول إثر ذلك:

(علّموني أنّ لي بيتاً كبيتي في أريحا

أنّ لي في القاهرة

إخوةُ، أن حدود النّاصرة

مكة.

كيف استحال العلمُ قيداً

والمدى نارَ حصار، أو ضَحيّهْ

ألهذا لا أرى في الأفْقِ شمساً عربيّه؟)[8]

صمت العربُ على العربِ، وبُنيت الحواجز على الحدود، تبخرت الوحدة العربيّة بين أضلع الخونة، كُتب التّاريخ العربي بأحرف من دماء، لنشهد بداية تاريخ دموي-سجل مملوء بالمهازل والخيبات المتكررة- زخرفته الأنامل العربيّة بإتقان شديد.

آه لو تعرف المهزلَهْ[9]

ويُواصل سرد تفاصيل الأحداث المتسارعة عند حبيبته –وحبيبتنا- فلسطين، في أسلوب لغوي شفّاف الأحرف غامض الدّلالات، فيقول فيها:

شجرُ يثمرُ التّحوّلَ والهجرةَ في الضّوءِ جالسُ في فلسطين

وأغصانُهُ نوافذُ أصغينا لأبعادهِ قرأنا معه نجمةَ الأساطيرِ

جندُ وقضاةُ يدحرجون عظاماً ورؤوساً، وآمنونَ كما يرقد حلمُ

يُهَجّرون، يُجَرّونَ إلى التِّيه...

كيف نبدأ؟[10]

فهو هنا يروي لنا ترحيل وتهجير الفلسطينيين من بلدهم بالقوة، من مدينتهم يافا، وحيفا، وغيرها، تحت سكوت الحكام العرب، وسباتهم اللاوطني واللامبرر. إلاّ أن فلسطين لا زالت تكافح، وسيستمر الكفاح رغم كلّ شيء، ستعلو رايتها في أنحاء جميع الأوطان عاجلا أم آجلا، يكفيهم وعد الله، ووعد الله هو الحق.

والقدسُ تخطّ اسمها:

لم تزل الدّولةُ موجودةً

لم تزل الدّولةُ موجودةً

غير أنّ النّهر المذبوحَ يجري:

كلّ ماءٍ وجه يافا

كلُّ جرحٍ وجه يافا

والملايين التي تصرخُ: كلاّ، وجهُ يافا[11]

ستبقى فلسطين دولة عربيّة شامخة، لا يقهرها عدو، ولا يحتلها مغتصب، ستنهض من جديد لتعود إلى الحياة، ولتتنسم بروح الحرية، لتقول إنني هنا وسأبقى هنا، سوف تصرخ في المحتل وتعزف له أنغام الحرية، ستسترجع أرضها وشعبها، ولن تحتمي بظل الدول العربيّة، سيكون شعارها النّصر ولا غيره يرضي أبطالها وحماتها، وقراراتها السّويّة.

باسْم يافا

باسم شعبٍ يرفعُ الشّمس تحيّة

سمِّني قنبلةً أو بندقيّهْ...

هذا أنا: لا، لستُ من عصر الأفولْ

أنا ساعةُ الهتْكِ العظيم أتتْ وخلخلةُ العقولْ[12]

لقد استطاع أدونيس أن يخلق من فوضى كلماته، دلالات جديدة موحية تنم عن روح وطنيّة عاليّة، فهو يرفض رفضا قاطعا الاستسلام والضّعف والهوان، بل ذهب إلى الطغيان والتّمرد، والهدم، وإعادة التّأسيس في نفس الوقت.

ويلجأ إلى ذكر الوقائع الماضيّة في طابع سردي أنيق، يقول فيه:

(العدوُّ يطغى وهم يخسرون، ويمدُّ وهم يَجْزُرون،

ويطول وهم يَقْصرون، إلى أن عادوا إلى علمٍ ناكسٍ

وصوْتٍ خافت، وانشغل كلّ ملكٍ بسدّ فتوقه،

... وعندما يجدّ الجدُّ ويطلب الأندلس عَوْنَ الملك

الصالح لاستخلاص إقليم الجزيرة، وقد سقط في أيدي

الأسبان، يكتَفي بالأسف والتّعزيّة ويقول بأنّ الحرب سجالُ

وفي سلامتكم الكفاية،... ولم يزل العدوّ يواثبهم

ويُكافحهم ويُغاديهم القتال ويراوحهم حتّى أجهضهم عن

أماكنهم وجفّلهم عن مساكنهم، وأركبهم طبقا عن طبق

واستأصلهم بالقتل والأسر كيفما اتفق ...)[13]

من هذا الأسلوب السّردي نرى أهميّة الكلمة ودورها في تشكيل المعنى، والمرتبط بأداء دلالة أو حتى عدة دلالات مكملة لما قبلها وما بعدها، فلا توجد كلمة شريدة وضالة، إنما هي حمولة دلاليّة مكملة للسياق العام المرتبط بفحوى القصيدة.

وهو يتحدث هنا عن تراجع ملوك الطوائف في حربهم مع الأسبان، وطلبهم المساعدة من ملك المغرب وإذا عدنا إلى تاريخ الأندلس فهذا الملك من يجهز على الأندلس بشكل رسمي، ف«بعد أن انقطعت خلافة بني أمية ولم يبق من عقبهم من يصلح للملك، استبد بالأندلس أفراد غلب كل واحد منهم على ما يليه، وهم المسلمون بملوك الطوائف، فضبطوا نواحيها، وجعلوها عواصم الحضارة، وتنافسوا على أبهة الملك وفخامة الشّأن»[14] فقد عرف مع ملوك الطّوائف تفكك الأندلس إلى عدة إمارات، فضعفت بعدما كانت ذات قوة كبيرة، وهي التي أطاحت بعدوها بسهولة، فتنافست هذه الطوائف على متاع الدّنيا متجاهلين العدو المتربص بها، وفي أواخر القرن الخامس عشر «نُكب ملوك الطوائف وانقرض ملكهم على يد **"يوسف بن تاشفين"** الملقب بأمير المسلمين»[15]، ويُشير أدونيس

في المقاطع السّابقة خيانة هذا الملك في قوله: **"يكتفي بالأسف والتّعزيّة ويقول بأنّ الحرب سجال وفي سلامتكم الكفاية"**.

وكأنّ أدونيس يُعيد قراءة التّاريخ، بإسقاطه على يافا-فلسطين، أهي الخيانة العربيّة تُعيد ترتيل أفكارها؟ وقد تنبأ بمصير أكثر عنف بمصير القضية، وفي تصريحه الأخير يعلّق على نكبة فلسطين بقوله: «سبعون سنة، وانظر إلى وضع العرب. العرب يأكل بعضهم البعض الآخر، وهم بارعون في ذلك. لكن، لم يمارس أيّ ضغط عربيّ حقيقيّ على العالم من أجل فلسطين؛ أيّ ضغط حقيقيّ؛ أيّ ضغط مؤثّر»[16]

وفي محاولته لإعادة ترتيب الأصول –أصول الأشياء- يكتب تاريخانية الأشياء، والتّسطير على نقاط الظّل في تاريخ الأدب العربي، وطرحها في قالب شعري-سردي لنشر ثقافة التّمعن والتّدقيق في جميع التّفاصيل، والجزئيات، والالتفات إليها، فنجده في نهاية قصيدته يبوح بقريحته قائلا:

خَرجوا من الكتب العتيقَةِ حيثُ تهترئُ الأصولْ

وأتوا كما تأتي الفصولْ

حضَنَ الرَّماد نقيضهُ

مَشَتِ الحقولُ إلى الحقولِ:

لا، ليس من عصر الأفولْ

هو ساعةُ الهتْكِ العظيمِ أَتتْ، وخلخلةُ العقولْ.[17]

يومئ الشّاعر في هذه المقاطع الشّعريّة إلى زمن غير موجود، زمن قادم من عصر غير عصرنا–استشراف للواقع العربي- فهو يتنبأ بكسر الحواجز التي لفها العربي عليه وعلى حياته، للمضي إلى بناء مستقبل جديد يُخالف عصر الضّعف، نافضا عن ثيابه الذّل والهوان.

4. المبنى السّردي القصصي في قصيدة مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف:

لقد كان الأسلوب القصصي في قصيدة **"مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف"** بارزا بشكل جلي، من خلال حضور عناصر القصة، وسنتطرق إليها في النّقاط الآتيّة:

1.4 الحضور القصصي:

طغى على القصيدة الحضور القصصي، فقد استعان أدونيس بالحكي لتمرير خطابه الشّعري تحت أسلوب مرن، مقبول من ناحية الشّكل بالرّغم من بعض التّجاوزات الدّالة على التّمرد، والطّغيان باعتباره من الحداثيين النّاقمين على الأساليب الجاهزة والمبتذلة، ومن أهمّ هذه التّشكيلات القصصيّة في قصيدة "مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف"، القصّ التّاريخي برجوعه إلى وقائع تاريخية ماضيّة، يمكن إجماعها في النّقاط التّاليّة:

•**قصة ملوك الطّوائف:** وكان حضورها بداية من عتبة العنوان: "مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف" الذي يوحي بوقائع ماضيّة جرت في الأندلس، فيعمل أدونيس على سرد مقتطفات من القصة في مقاطع متفرقة، يقول: (العدوّ يطغى وهم يخسرون، ويمدّ وهم يجزرون، ويطول وهم يقصرون، إلى أن عادوا إلى علم ناكسٍ وصوت خافت، وانشغل كلّ ملك بسدّ فتوقه،...وعندما يجدّ الجدّ ويطلب الأندلس عون الملك الصالح لاستخلاص إقليم الجزيرة، وقد سقط في أيدي الأسبان، يكتفي بالأسف والتّعزيّة ويقول بأنّ الحرب سجال وفي سلامتكم الكفاية،... ولم يزل العدو يواثبهم ويكافحهم ويغاديهم القتال ويراوحهم حتّى أجهضهم عن أماكنهم وجفّلهم عن مساكنهم، وأركبهم طبقا عن طبق واستأصلهم بالقتل والأسر كيفما اتفق...)[18].

إنّ القارئ لهذا النّص سيجزم على أنّه نص نثري خالص، ولا ينتمي لجنس الشّعر، لتوفره على منطق الحكي، فقد سُرد متسلسلا في الأفكار، متوفرا على الرّوابط بين الجمل والكلمات.

•**قصة اغتيال الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:** تخللت هذه القصّة ثنايا القصيدة بشكل مباشر، أو غير مباشر، لتبيان الحقد اليهودي المتجذر في أعماق التّاريخ،

فقد اغتيل الخليفة على يد اليهودي، مثله مثل الخلفاء الذين قبله (عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عثمان بن عفان رضي الله عنه)، فيقول إثر ذلك: هاموا حفروا حفرة لوجه علي[19]، استعمل ضمير الغائب "هم" للدّلالة على اليهود، وقد استغنى عن تفاصيل الحكاية، ليجعل القارئ يستحضرها في ذهنه، ليحقق جمالية وشاعريّة، إضافة إلى جعله للقارئ أكثر عمقا في قراءة ما بين السّطور.

•**قصة يافا الفلسطينيّة:** هي محور القصيدة الأدونيسيّة، حكاية يافا تشبه كثيرا-حسب أدونيس- حكاية الأندلس، التي ضيعها أهلها بالتّهاون، والخيانة، حتى وقعت أخيرا في يد الإسبان، وهو ما كان بالنّسبة ليافا التي عانى أهلها التّهجير تحت السكوت العربي، ليستولي عليها الإسرائيليون في النّكبة، وقد نعاها في مقاطع كثيرة، كقوله: كلّ ماءٍ وجه يافا، كلّ جرحٍ وجه يافا، والملايين التي تصرخ: كلاّ، وجه يافا، والأحباء على الشّرفة، أو في القيد، أو في القبر يافا، والدّم النّازف من خاصرة العالم يافا، سمّمني قيسا وسمّ الأرض ليلى باسم يافا[20]، تنمّ الكلمات عن وجع دفين في قلب الشّاعر، هو وجع يافا، فقد لخص العالم في منطقة يافا، وأصبح الزّمن يحسب بعقارب يافا، وقد جاء هذا الرّثاء بأسلوب إنشائي يقارب الأسلوب الرّوائي، رغم تلاعب الشّاعر بالكلمات.

تجدر الإشارة إلى أنّ هذه القصيدة -مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف- تنبني على قصة رئيسيّة، هي قصة يافا-الفلسطينيّة المغتصبة من طرف الكيان الصهيوني الحاقد، تندرج تحتها قصص فرعيّة، قصة "ملوك الطّوائف"، وقصة "اغتيال الخليفة علي بن أبي طالب"، استعان بهما الشّاعر لتوضيح رؤيته من القضيّة الفلسطينيّة.

2.4 الحضور الزّماني والمكاني:

يعتبر كل من الزّمان والمكان مؤشران ضروريان في قيام السّرد-القصة، كما أنّهما يرتبطان بشكل وثيق في الحكايات والقصص، فيكملان بعضهما البعض، لتترابط الأفكار، وتتشكل المعاني بطريقة درامية صحيحة لدى القارئ، إلاّ أنّ أدونيس في قصيدته هذه خرق القاعدة، فقام بفصل ذلك التّناغم الذي بينهما، لتشتيت القارئ عن المعاني الخلفيّة للقصيدة.

•الزّمن:

يتلاعب الشّاعر بحيثيات الزّمن، فيدخل في رحلة لازمنيّة لخلق فوضى دلاليّة كثيفة، فالوقت عنده عجين يتشكّل حسب رغباته، وأهدافه الكامنة من وراء كتابته للقصيدة، فقد جاء في القصيدة قوله:

وكان الوقت يشرف أن يصبح خارج الوقت وما يسمّونه

الوطنُ يجلس على حافة الزّمن يكاد أن يسقط، (كيف يمكن

إمساكهُ؟) سأل رجل مقيّد وشبه ملجوم.[21]

كيف للوقت أن يكون خارج الوقت؟ هل هو تلاعب بالكلمات من أدونيس؟ أم أنّه كان متمردا عليه كما تمرد على أشياء كثيرة في الحياة؟ أم أنّ الوقت هو من تمرد علينا فجعلنا نتأرجح في لعبة الزّمن؟

•المكان:

يمثّل المكان بفضائه المتكامل مكونا رئيسيا في هذا المتن الشّعري، فنرى تفاعله مع دلالات القصيدة، مكملا لها، فقد تنّقل الشّاعر بين أمكنة مختلفة، للطواف بين جميع الدّول العربيّة، وله في ذلك غايات وأهداف حيث جاء في السّطر الأوّل لقصيدة "مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف": **وجه يافا طفل هل الشّجر الذابل يزهو؟**[22]، ولا شكّ في أنّ عتبة العنوان تركت للقارئ تساؤلا عن العلاقة بينه -أي عنوان القصيدة- وبين استهلاله وبدايته لها -ونقصد يافا- ولا شكّ في أنّ لأدونيس رابطا قويا يجمع بين الأندلس ويافا؛ فإذا لم يكن الرّابط تاريخيا، فإنه سيكون ضمنيا، يتعلق بمصير كلتيهما.

ويافا الفلسطينية (المكان) كانت محور القصيدة، وعنوانها الخلفي-الحقيقي- كما أنّها صورة لعلاقة إنسانيّة تتكئ عليها الذات الشّاعرة لإيصال حقائق مغيّبة عن الضمير العربي الميّت.

ويتطرّق إلى مجموعة من الدّول العربيّة، **(علّموني أنّ لي بيتا كبيتي في أريحا**(أريحا مدينة فلسطينيّة تاريخيّة قديمة)**/أنّ لي في القاهره/إخوة، أنّ حدود النّاصره** (النّاصرة

من أهمّ المدن الفلسطينيّة، قبل أن يتم ضمها للمنطقة الإسرائيليّة)/**مكة)**[23] فهو تلميح إلى تباعد الدّول العربيّة وشتاتهم، ونسيانهم للقضيّة، فيلجأ إلى ذكر هذه الأمكنة لتصوير القرب الفني بينهم، والبعد الوهمي المُسمى بالحدود الجغرافيّة.

ويُواصل عرضه لمختلف الدول العربيّة، فيقول: **(تظهر في كوخ على الأردن أو في غزّة والقدس)**[24] ، هذا القفز بين الأمكنة بكل سهولة خلق مجموعة من المجازات القابلة لعدة تأويلات، وهذا ما يميّز أدونيس في كتاباته الشعرية المتفردة، والمتمردة على التّأويلات الجاهزة.

ويعمد إلى ربط المناطق الفلسطينيّة (أريحا-الناصرة- غزة-القدس) مع مختلف الدول العربية للتّأكيد على الصّلة الوثيقة بين فلسطين وبقية البلدان العربيّة، هي أكبر من كونها علاقة بين صلة وموصول، بل هي قضيّة تاريخ محتوم ومشترك بين عائلة، نخرتها أطراف خفيّة إسرائيليّة-عربيّة.

أتقن أدونيس شرح الحالة العربيّة المستعصية، التي تنتابها فوضى وغموض، وضبابيّة، فقد صوّر الجسد العربي متبرئا من روحه (فلسطين) ممّا جعله حُطاما مشلول الإرادة والعزيمة، تعتريه نكبات مستمرة، وهذا ما دفع الشّاعر للتعبير عن هذا الوضع بقوله: **(..أنا نهر الأردن أستفرد الزهور وأغويها دم نازف تبطنت أرضي ودمي)**[25]، **(وهران مثل الكاظميّه/ودمشق بيروت العجوز/صحراء تزدرد الفصول)**[26].

3.4 تمثّلات الشّخصية التّاريخية في القصيدة:

•**"أبو الحزم ابن جهور"**: وهي شخصيّة تاريخيّة من عصر ملوك الطّوائف، استحضرها الشّاعر للحديث عن ضياع الأندلس في عصره المملوء بالمغامرات واللهو والمجون، وقد كان ناقما عليها –أي على هذه الشّخصيّة- بشدّة، اتضح ذلك في قوله: **(وابن جَهْورَ ميْتُ/لم يكن في البدايةْ/غير جِذْرٍ من الدمع أعني بلادي)**[27] كما أشار إليها كذلك دون التّصريح المباشر، في قوله: **(كشفت رأسها الباء، والجيم خصلة شعر، إنقرض إنقرض/ألف أول الحروف إنقرض إنقرض/أسمع الهاء تنشج، والراء مثل الهلال/غارقا ذائبا في الرّمال/إنقرض إنقرض)**[28] ومجموع الحروف هي شخصية ابن جهور التي يطالبه

بالانقراض، مع أنّها صارت ماضيا بعيدا، إلاّ أنّه يُخاطب شخصية عربية أخرى، كان قد أسقطها على الشّخصيّة الأندلسيّة.

•**"علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه":** وهي شخصيّة تاريخيّة-إسلاميّة، استعان بها أدونيس لتبيان الحقد اليهودي المتغلغل في أعماق التّاريخ، فقد اغتِيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه من طرف سلالة يهوديّة- وهذا ما توضحه فعلا المتون الدّينيّة في الشّريعة الإسلاميّة- وقد تطرّق إلى هذه الحادثة في قوله: **(هاموا حفروا حفرة لوجه عليّ)**[29] وكذلك في قوله: **(وعليّ يسأل الضوء، ويمضي/حاملا تاريخه المقتول من كوخ لكوخٍ)**[30]، وقد أسقطها هنا الشّاعر على يافا التي اغتالها الحقد الإسرائيلي منذ خمسين سنة، وها هو اليوم يمارس السّلب والنّهب تحت سكوت وصمت عربي خائن للقضيّة الفلسطينيّة.

5. خاتمة:

وبعد الوقوف عند قصيدة **"مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف"** للشّاعر المتمرد **"أدونيس"** يمكن أن نستخلص عدّة نتائج أهمها:

- اعتبرت القصيدة الأدونيسية "مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف" استشرافا لواقعنا اليوم المتوج بعنوان بارز "بداية تطبيع الدّول العربيّة"، معبّرا فيها عن الشتات العربي وتفرّق الوحدة العربيّة، ونسيان القضيّة الفلسطينيّة باستعمال رمز الأندلس **"الفردوس المفقود"**، فتقاطعت مع محتوى هذه القطعة الشّعريّة، والمتحدثة عن **"ضياع يافا-عروس الشّرق"**.

- تنبني القصيدة في شكل فوضوي مفتوح، فقد جاءت الجمل متنافرة تارة، ومتواشجة متداخلة تارة أخرى، فهذه القطعة الشّعريّة بمثابة دفقة شعورية مبعثرة متمردة على السياق المنطقي للشكل الأوّل.

- قامت قصيدة "مقدمة لتاريخ ملوك الطّوائف" على قصة رئيسيّة، هي قصة يافا-الفلسطينيّة المغتصبة من طرف الكيان الصهيوني، واندرجت تحتها قصص فرعيّة، قصة "ملوك الطّوائف"، وقصة "اغتيال الخليفة علي بن أبي طالب"، استعان بهما أدونيس لتوضيح رؤيته من القضيّة الفلسطينيّة.

- تلاعب أدونيس بحيثيات الزّمن، فكانت القصيدة رحلة لازمنيّة، لخلق فوضى دلاليّة كثيفة، فالوقت عنده عجين تشكّل حسب رغباته، وأهدافه الكامنة من وراء كتابته للقصيدة

- مثّل المكان بفضائه المتكامل مكونا رئيسيا في هذا المتن الشّعري، حيث رأينا تفاعله مع دلالات القصيدة، من خلال تكميلها، فقد تنّقل الشّاعر بين أمكنة مختلفة، للطواف بين جميع الدّول العربيّة، وله في ذلك غايات وأهداف مخبوءة تحت هذا الأثر الشّعري.

---

6. الهوامش:

[1]- جلال الخياط، الأصول الدّرامية في الشعر العربي، دار الرشيد للنّشر، (د.ط)، 1982، ص06.

[2]- ثروت أباظة، القصة في الشّعر العربي، مكتبة مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص45.

[3]- هاني الخيّر، أدونيس شاعر الدّهشة وكثافة الكلمة، دار فليتس للنشر والتّوزيع، ط1، المدية-الجزائر، (د.ت)، ص169.

[4]- المرجع نفسه، ص169.

[5]- المرجع نفسه، ص170.

[6]- المرجع نفسه، ص170.

[7]- المرجع نفسه، ص 171.

[8]- المرجع نفسه، ص 172،173.

[9]- المرجع نفسه، ص 173.

[10]- المرجع نفسه، ص 177.

[11]- المرجع نفسه، ص 178،179.

[12]- المرجع نفسه، ص 179.

[13]- المرجع نفسه، ص 182.

[14]- مصطفى صادق الرّافعي، تاريخ آداب العرب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، (د.ط)، القاهرة-مصر، 2012، ص 889.

[15]- المرجع نفسه، ص 892.

[16]- أدونيس، هذا هو اسمي- حاوره بيار أبي صعب-، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط1، بيروت-لبنان، 2019، ص 33.

[17]- هاني الخيّر، أدونيس شاعر الدّهشة وكثافة الكلمة، ص 183،184.

[18]- ينظر: المرجع نفسه، ص 182.

[19]- ينظر: المرجع نفسه، ص 169.

[20]- ينظر: المرجع نفسه، ص 179.

[21]- المرجع نفسه، ص 181.

[22]- المرجع نفسه، ص 169.

[23]- المرجع نفسه، ص 172،173.

[24]- المرجع نفسه، ص 175.

[25]- المرجع نفسه، ص 177.

[26]- المرجع نفسه، ص 180.

[27]- المرجع نفسه، ص 170.

[28]- المرجع نفسه، ص 171.

[29]- المرجع نفسه، ص 169.

[30]- المرجع نفسه، ص 172.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊